الآراء النقدية في كتاب "الغربال"

obeikandl.com

obeikandl.com

الآراء النقدية في

كتاب "الغربال"

في فصول كتاب الغربال و موضوعاته يتناول ميخائيل نعيمة آراء نقدية لها كبير أهمية في النقد الحديث ، أبرزها :

(١) يتحدث عن مهمة النقد الأدبي ، من تمييز بين الجيد و الردىء فيما أطلق عليه (الغربلة) ، " ليست غربلة الناس ". بل غربلة ما يدوّنه قسم من الناس من الأفكار و الشعور و الميول هو ما تعودنا أن ندعوه أدبًا ، فمهنة الناقد إذن هي غربلة الآثار الأدبية .

(٢) وهو يطلب من الناقد أن يتحلى بإخلاص النية و الحيدة التامة ودقة الذوق ورقة الشعور ، وذلك في رأيه – هو الناقد الذي يتقبل منه النقد ، لأن الشعراء و المبدعين يرون الإخلاص فيما يكتب ، " فالناقد الذي توافرت له مثل هذه الصفات لا يعدم أناسًا ينضوون تحت لوائه و يعملون بمشيئته ، فيستحبون ما يحب ويستقبحون ما يقبح ، فيصبح وهو وراء منضدته سلطانًا يأمر .. وتتذوق بذوقه ألوف من الناس "[1] .

١- الغربال ، ميخائيل نعيمة ، وزارة الثقافة و الفنون و التراث ، دولة قطر ، ٢٠١٢ص ٤٠.

(٣)ونحن في حاجة إلى النقاد " لأن أذواق السواد الأعظم منا مشوهّة بخرافات رضعناها من ثدي أمسنا ، و ترهات اقتبلناها من كف يومنا ، فالناقد الذي يقدر أن ينتشلنا من خرافات أمسنا ، و ترهات يومنا ، و الذي يضع لنا اليوم محجة لندركها في الغد هو الرائد الذي سنتبعه ، و الحادي الذي سنسير على حذوه"[١].

(٤) كما أن وظيفة الناقد لا تقف عند حد تمييز جيد الشعر من رديئه " إلاَّ أن فضل الناقد لا ينحصر في التمحيص و التثمين و الترتيب فهو مبدع و مولد و مرشد ...مبدع عندما يرفع النقاد في أثر ينقده عن جوهر لم يهتد إليه أحد ، حتى صاحب الأثر نفسه .. وهو مولد لأنه في ما ينقد ليس في الواقع إلاّ كاشفًا نفسه ، فهو إذا استحسن أمرًا لا يستحسنه لأنه حسن في ذاته ، بل لأنه ينطبق على آرائه في الحسن .. و الناقد مرشد لأنه كثيرًا ما يرد كاتبًا مغرورًا إلى صوابه ، أو يهدي شاعرًا ضالاً إلى سبيله "[٢].

أما حديثه عن الأدب ، و الكاتب المجيد " سواء كان روائيًا أو صحافيًا أو شاعرًا ، هو الكاتب الذي يرى بعيني قلبه مالا يراه كل بشر الكاتب الذي يعد لنا من كل مشهد من مشاهد الحياة درسًا مفيدًا

١- السابق : ص ٤٧.
٢- نفسه : ص ٤٩.

أن يطبق عينيه و يصم أذنيه عن حاجات الحياة و ينظم ما توحيه إليه نفسه فقط سواء كان لخير العالم أولويله .

ومادام الشاعر يستمدّ غذاء لقريحته من الحياة ، فهو لا يقدر – حتى لو حاول ذلك – إلاَّ أن يعكس أشعة تلك الحياة في أشعاره فيندد هنا و يمدح هناك . لذاك يقال إن الشاعر ابن زمانه ، وذاك صحيح في أكثر الأحوال إن لم يكن في كلها "[1] .

- و يُفرِّق الشَّاعر " و النظّام " الذي يعني بالوزن و القافية على حساب المعنى و المضمون ، " فالنظّام يأخذ قلمًا و قرطاسًا ، ثم يبدأ بوخز دماغه و قريحته علّه يتمكن من أن يهيجها ولو قليلاً.

غايته لا أن يترجم عن عواطف أو أن يعبر عن أفكار ، بل أن " ينظم قصيدة ، لذاك إذا خدعنا هذا بطلاوة نسقه فلا يطول أن نكتشف تصنعه و خداعه فننساه و ننسى قصيدته .أما الشاعر الذي يسقي قلمه من قلب طافح وروح هائجة فربما لا نفهمه اليوم ولا نهتم به ، لكن لابد أن نفيق غدًا و ندرك هفوتنا ، لأن الجمال – كالشمس – لا يختفي .[2]"

و يتحدث نعيمة عن اللغة العربية ، وماهي فيه من محنة ، ذلك أننا قنعنا بما جاء إلينا ، وما ألفناه من الأجداد ، دون أن نتوسع في

١- السابق : ص ١١١.
٢- السابق : ص ١١٤.

مفهوم اللغة ، و نضيف إليها جديدًا من الألفاظ مما يفرزه الواقع ويضيفه إلى القاموس ، " إن اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع إلا لقوانين الحياة .

فهي تنتقي المناسب ، و تحتفظ من المناسب بالأنسب في كل حالة من حالاتها . و كالشجرة تبدل أغصانها اليابسة بأغصان خضراء و أوراقها الميتة بأوراق حية " [1].

و يستدل لضرورة أن نضيف إلى اللغة بنموذج نقدي " من كاتب مصري لقصيدة جبران خليل جبران " المواكب " **وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت :**

هـــل تحممـــت بعطـــر ** و تنشـــــفت بنـــــور

فأثبته ووضع بعد كلمة " تحممت " كلمة " كذا" و بعدها علامة استفهام . وإن شئت فقل علامة استغراب .

كأن الناقد يقول للقاريء : انظر. هو يقول " تحممت " وليس في اللغة كلمة " تحمم " بل " استحم " فيا للجريمة ![2]" .

١- السابق ص : ١٢٢.
٢- السابق ص ١٢٣.

أن يطبق عينيه و يصم أذنيه عن حاجات الحياة و ينظم ما توحيه إليه نفسه فقط سواء كان لخير العالم أولويله .

ومادام الشاعر يستمدّ غذاء لقريحته من الحياة ، فهو لا يقدر – حتى لو حاول ذلك – إلاَّ أن يعكس أشعة تلك الحياة في أشعاره فيندد هنا و يمدح هناك . لذاك يقال إن الشاعر ابن زمانه ، وذاك صحيح في أكثر الأحوال إن لم يكن في كلها "[1] .

- و يُفرِّق الشَّاعر " و النظّام " الذي يعني بالوزن و القافية على حساب المعنى و المضمون ، " فالنظّام يأخذ قلمًا و قرطاسًا ، ثم يبدأ بوخز دماغه و قريحته علّه يتمكن من أن يهيجها ولو قليلاً.

غايته لا أن يترجم عن عواطف أو أن يعبر عن أفكار ، بل أن " ينظم قصيدة ، لذاك إذا خدعنا هذا بطلاوة نسقه فلا يطول أن نكتشف تصنعه و خداعه فننساه و ننسى قصيدته .أما الشاعر الذي يسقي قلمه من قلب طافح وروح هائجة فربما لا نفهمه اليوم ولا نهتم به ، لكن لابد أن نفيق غدًا و ندرك هفوتنا ، لأن الجمال – كالشمس – لا يختفي .[2]"

و يتحدث نعيمة عن اللغة العربية ، وماهي فيه من محنة ، ذلك أننا قنعنا بما جاء إلينا ، وما ألفناه من الأجداد ، دون أن نتوسع في

١- السابق : ص ١١١.
٢- السابق : ص ١١٤.

مفهوم اللغة ، و نضيف إليها جديدًا من الألفاظ مما يفرزه الواقع ويضيفه إلى القاموس ، " إن اللغة التي هي مظهر من مظاهر الحياة لا تخضع إلا لقوانين الحياة .

فهي تنتقي المناسب ، و تحتفظ من المناسب بالأنسب في كل حالة من حالاتها . و كالشجرة تبدل أغصانها اليابسة بأغصان خضراء و أوراقها الميتة بأوراق حية " [1].

و يستدل لضرورة أن نضيف إلى اللغة بنموذج نقدي " من كاتب مصري لقصيدة جبران خليل جبران " المواكب " **وقد عثر فيها الناقد على هذا البيت :**

هـــل تحممـــت بعطـــر ** و تنشـــفت بنـــور

فأثبته ووضع بعد كلمة " تحممت " كلمة " كذا" و بعدها علامة استفهام . وإن شئت فقل علامة استغراب .

كأن الناقد يقول للقاريء : انظر . هو يقول " تحممت " وليس في اللغة كلمة " تحمم " بل " استحم " فيا للجريمة ! [2]" .

١- السابق ص : ١٢٢.
٢- السابق ص ١٢٣.

و يعلق نعيمة : " سألتكم يا سادتي ، باسم العدل و الفهم والقاموس : لماذا جاز لبدوي لا أعرفه ولا تعرفونه أن يدخل على لغتكم كلمة " استحم " ولا يجوز لشاعر أعرفه و تعرفونه أن يجعلها " تحمم " ؟

وأنتم تفهمون قصده بل تفهمون " تحمم " قبل أن تفهموا " استحم؟ وما هي الشريعة السرمدية التي تربط ألسنتكم بلسان أعرابي عاش قبلكم بألوف السنين ، ولا تربطهما بلسان شاعر معاصر لكم "[1].

ويقول : " أمامكم كلمتان : " استحم " وهي قاموسية .

و " تحمم " وهي غير قاموسية . ألا ترون أنكم إذا أعرضتم عن الثانية تضمحل من تلقائها؟ وإذا أقبلتم عليها تصبح جزءًا من لغتكم وتضمحل الأولى ؟ وفي الحالتين تجرون باختياركم حسب سنن طبيعية ليس لي ولا لكم فوقها أقل سلطة " [2].

و يعترض ميخائيل نعيمة على أوزان الخليل بن أحمد و عروضه و تقديس الشعراء و النقاد له عبر عصور طويلة ، و يرى في الزحافات و العلل قيودًا تعوق عملية الإبداع ، و تقف حائلاً أمام تجارب الشعراء **يقول** : " و الزحافات و العلل أوبئة تنزل بأوزان الشعر العربي فتحرك ساكنًا أو تسكن متحركًا ، و تقضم حرفًا هنا ومقطعا هناك .." [3] .

١- السابق ص ١٢٤.
٢- السابق ص ١٢٤.
٣- السابق ص ١٢٣.

و يرى عدم جدوى هذه الزحافات و العلل ، و أننا أضعنا الوقت في دراستها ، " لقد مات الخليل يا أخي .

ومنذ مات الخليل حتى اليوم و نحن منغمسون في درس الخبن و الخبل ، و الترفيل و التذييل ، و النقص ، و الوقص ، و القطف و الكسف ، و الحزم ، و الثلم ، و القصر و البتر إلى ما هنالك من علل زاحفة ، وزحافات معتلة "[1] .

إنه يدعو إلى التجديد و التطوير ، و يرى أن يتحرر الشاعر من هذه القيود المتمثلة في الزحافات و العلل ، إذ ليس المهم إتقان الأوزان و معرفة الزحاف و العلة بل الغاية هي الإبانة و إيضاح المحتوى " وكما أن الله لا يحفل بالمعابد وزخرفتها بل بالصلاة الخارجة من أعماق القلب ، هكذا النفس لا تحفل بالأوزان والقوافي من ضرورة الشعر كما أن المعابد و الطقوس ليست من ضرورة الصلاة والعبادة " [2].

١- السابق ص ١٣٤.
٢- السابق ص ١٤١.